ولي الدين يكن (١)

سقى الله دارات «القرافة» ديمةً ترف على قوم هنالك هُجَّدِ
أحن الى تلك المراقد في الثرى ولواستطيع اليوم لاخترتُ مرقدي
فانزلتُ جسمي منزلاً لا يملهُ يكون بعيداً عن اعاد وحسد
وما يتمنى الحر من ظل عيشةٍ ثمرٌ لاحرار وحلو لاعبد

امنية اعرب عنها « ولي الدين يكن » في قصيدة بعث بها اليّ منذ ثماني سنوات خلت وجددها لي في هذا المكان الرهيب يوم جئنا منذ ثلاثة اعوام لنلحد هنا ولداً لهُ اخترمتهُ المنية في العقد الاول من العمر . وها ان الامنية التي اعرب عنها قد تحققت الآن فغادر ظل عيش مر طعمهُ للاحرار وحلو مذاقهُ للعبيد ورقد رقدتهُ الاخيرة في تلك « القرافة » بين آله الكرام واجداده العظام ونزل بينهم منزلاً لا يملهُ لانهُ طالما تاق اليهِ بجميع جوارح نفسهِ المتألمة . فسلام عليهِ في مرقده الهادىء الامين ! وسلام على تلك الاجداث التي تضم حول جدثهِ رفاتاً طاهراً وعظاماً عظاماً

***

ايها السادة

مات الفتى اليكني . فكان لمنعاهُ رنة حزن واسف تجاوب صداها في جميع انحاء العالم العربي من وادي النيل الى دجلة والفرات ومن قمم لبنان الى دمشق الشام وحلب الشهباء : فقامت لهُ المناحات هناك كما قامت هنا وعقدوا لهُ قبلنا حفلات التأبين والرثاء لان « ولي الدين » كان من اعلام شعراء الشرق والشرق مهبط الوحي والالهام لا يزال طروباً للشعر ولوعاً بهِ . وكان ولي الدين في طليعة احرار الشرق والشرق في دوره الحاضر نزوع الى الحرية متعطشاً الى الاستقلال والانعتاق من القيود التي ثقلت عليهِ . فلا بدع اذا بكى الشرق ذلكم الشاعر الذي يمت بشاعريتهِ الى البحتري وابي نواس والبهاء زهير ولا عجب اذا جزع الشرق لخمود ذلك الفكر الحر الذي صهر اغلال التقييد فكسرها ورفع فوقها علم الاستقلال الفكري عالياً خفاقاً

(١) وهو التابين الذي القاه حضرة الكاتب الالمعي انطون افندي الجميل في حفلة تابين ولي الدين يكن وختمه بكلمة تعزية لاسرة الفقيد

فعلى ولي الدين شاعراً من كبار شعرائنا وعلى ولي الدين حراً من اشرف احرارنا اقصر حديثي اليوم عنهُ ولطالما كان حديثهُ او حديث عنهُ يطربني — ويطربكم

١ — كان شاعراً ملء روحهِ الشاعرية وملء قلمهِ الفصاحة يستهوي النفس بسلاسة القافيهِ ورقة قوافيهِ وعذوبة اسلوبهِ ويملك القلب بلطف معانيهِ التي يصوّرها تصويراً كلهُ سلامة في الذوق ونزاهة في الفنّ فتراهُ يسترضي القارىء ساعة يرضى — وقليلاً ما يرضى — حتى ليملأ قلبهُ سروراً وصفاء . ويستبكيهِ حين يبكي ويتألم — وكثيراً ما يبكي ويتألم — حتى ليجعلهُ يلمس دموعهُ لمس اليد ويحس بناره تتأجج من خلال القافيهِ

مازجت الشاعرية — وهي سليقة فيهِ — نفساً عزيزة حساسة وقلباً شريفاً رقيقاً فكان اذا تأثرت نفسهُ وخفق فؤادهُ قال الشعر فارسلهُ عفو الخاطر دون اعنات فكر ولا اجهاد قريحة : فكم من قصيدة نظمها ونحن في جلسة انس وادب كأنهُ يرتجلها ارتجالاً

مهما حاولنا تصوير نفسهِ لا نصوّرها باقرب الى حقيقتها مما صوّرها بهِ صاحبها في شعرهِ وفي نثرهِ ايضاً. فهو شاعر في كلا الفنين المنظوم والمنثور : يصوغ كلامهُ المرسل كانهُ الشعر توقيعاً وانسجاماً وخيالاً وروعة معانٍ حتى لتكاد تستقيم لك جملتهُ شعراً موزوناً . ويسبك الشعر كانهُ النثر سهولةً وطلاقةً وطبعيةً وانقياد قوافٍ حتى لو حللت نظمهُ ما جئت باسهل منهُ . فتبيت بين هذا النثر الانيق وذلك الشعر الطليّ لا تدري اولي الدين اشعر في هذا ام في ذاك لانهُ ما جرى قلمهُ الاّ بما خفق بهِ قلبهُ وتحرّك لهُ لبهُ وهو في كلا الفنين ذو القلب المتألم مما حولهُ ولمن حولهُ لانهُ قلب حساس شريف تخدمهُ مخيلة ترى ما لا يراهُ الغير حتى اصبح كما قال هو عن نفسهِ : —

قلبي يحس وهذه عيني ترى ما حيلتي في ما يحس وما يرى

كان ولي الدين شاعراً في قصائدهِ العصماء يطير في العالم العلوي بجناحي الخيال والشعور وينظم في سلك بيانهِ الابتسامات والدموع دررا ابن منها الجواهر التي تزين النحور

كان شاعراً في « معلومهِ ومجهولهِ » وقد ضمنهُ مذكراتهِ عن منفاهُ فظهر فيها كأنهُ المغلوب الغالب والمقهور القاهر

كان شاعراً في «صحائفهِ السود» وهو يئنّ من الظلم والحيف والجهالة . وفي انينهِ دوي التهديد وفي شكواهُ رعد الوعيد

كان شاعراً في «تجاريبهِ» وما استفاد تجربة — ككل مجرّب — الاّ وقد امتلكها بشيء يخسرهُ من الامل حتى جاءت كما يقول وكما هي «آلام مصوّرة وشكاوى متجسدة»

٢ — هذا بعض الشيء عن ولي الدين الشاعر الكبير بين كبار شعرائنا . اما ولي الدين الحر الشريف المخلص بين اشرف احرارنا فلا تقل منزلتهُ عن منزلة ذاك

كان حرّاً في فكرهِ وقولهِ حرّاً في قلمهِ وفعلهِ يقول ما يريد ان يقول ولا يريد ان يقول الاّ ما يوحيهِ اليهِ يقينهُ ووجدانهُ حتى كان كالشاعر الملك امرىء القيس لا يقول الشعر رهبة ولا رغبة فامكنهُ ان يباهي ويقول :

اذم فلا اخشى عقاباً يصيبني وامدح لا ارجو بذاك ثوابا

هذا كان شأنهُ في كل ما كتب ونظم وهذا ما كان يريد ان يكون لسان حال الغير فيهِ قال : «لا ابالي الثناء ولا ابالي الهجاء وانما ابالي ان يصدق فيّ احدهما»

ولقد طالما اضرّت حريتهُ هذه بمصلحتهِ بين قومهِ بل وبين عشيرتهِ كما يعرف ذلك كل منا . ولو شاء ولي الدين ان يضحي ولو بالقليل من حرية رأيهِ واستقلالهِ الفكري لكان لهُ شأن كبير في تركيا اولاً وفي مصر ثانياً ولكنهُ آثر على كل ذلك ان يعيش حرّاً طليقاً فيقول : —

واعتلي كرسيَّ مستكبراً كالملك فوق العرش اذ يعتلي

فكان جزاؤهُ على ضفاف البوسفور المنفى سبع سنوات وكان جزاؤهُ على ضفاف النيل أن يتكنّ في داره ملسياً احياناً من أقرب الناس اليهِ . ولكنهُ لم يطأطىء رأساً ولم يحن ظهراً ولم يحد قيد شعرة عن مبدإهِ وسنتهِ بل زاد إعراضاً عن حطام الدنيا وتزهداً في اطلابها وهو القائل : —

تزهدت في وصل المعالي جميعها ومن يطلبها كاطلابي يزهد
وبت تساوت في فؤادي مناهج تؤدّي لخفض أو تؤدي لسؤدد
واني في بيت صغير مهدّم كأني في قصر كبير مشيد
تركت الغنى لا عاجزاً عن طلابهِ وأنزلت نفسي عن منازل محتدي
وهذي بحمد الله مني براءة فيا أفق سجلها ويا أنجم اشهدي

وقلما تخلو قصيدة من قصائده أو صفحة من كتاباته من مثل هذا الإيماء المجسم وتلك الالتفاتة العالية

وقد نقل حريتهُ هذه واستقلالهُ في حياته الى أسلوبهِ الشعري . ففي الشعر ايها السادة كما في السياسة حزبان : حزب استقلالي وحزب استعبادي وكان وليّ الدين في طليعة الحزب الاول لانهُ كان من القائلين بتحرير المخيلة والشعور من نير العبودية للمألوف الراهن . وهذا التحرير أو الاستقلال أصبح من ميزات الشعر العصري ولهُ روعتهُ وجمالهُ وان بلغ حدّ الغلو والتطرف احياناً لان للحرية عظمةً خاصة بها حتى في تهورها . فالشاعر الحر شغف بحرية الوحي الشعري كالسياسي الحرّ عبد لحرية الرأي السياسي . فالشعر في نظرهِ هيكل ذو مئة باب كلها مفتوحة على مصراعيها لكل صاحب خيال وشعور من أنبياء العبرانيين الى منشدي الوثنيين الى مرتلي النصارى الى شعراء الجاهلية والاسلام بل هو مفتوح للمصلحين الذين وضعوا الشرائع والانظمة وللثوّار الذين قوضوها . فتحت علم الشعر الحقيقي تنضوي العظمة والدعة والقوة والضعف والحلم والغضب والمحبة والبغض وجميع انواع الجنون والعبقرية

أيها السادة

كنت أودّ أن ألمّ بالدور السياسي الذي لعبهُ الفقيد في الاستانة ومصر . ولكني اخشى أن أقع مرغماً في العيب الفاشي في الناس وهو ان يقسموا موتاهم حسب أحزاب أحيائهم فحسبي أن أقول انهُ كان حرّاً في سياستهِ كما كان حرّاً في كتابتهِ

كنت أودّ ان أمنحهُ لكم صديقاً باراً وفياً مخلصاً ولكن كلكم كان لهُ صديقاً فحسبي أن اقول : عاشرتهُ من السنين عشراً بل تزيد فما عرفت فيهِ الاّ الشمائل الحلوة والخصال الغرّ الحسان

عرفتهُ في ديوان السلطنة وعرفتهُ على مكتب الصحافي وعرفتهُ في مجالس الانس وعرفتهُ قابعاً في دارهِ بين مخالب السقم وبراثن اليأس فلم أر منهُ في جميع المنازل التي أنزلتهُ الحياة الاّ لين العريكة ودماثة الخلق والحرية مع الادب والدعة مع الإباء

انطون الجميّل